الآية 83

وقُولُوا للنّاسِ حُسْنًا

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

تنوّع الأسلوب القرآنيّ في معالجة مساوئ اليهود وقبائحهم وترويضهم ونقلهم إلى حال أفضل من حالهم في الماضي والحاضر، حيث ذكرنا سابقًا أنّ في هذه السّورة أكثر من مائة آية تتكلّم على اليهود وبني إسرائيل تحديدًا، وذلك استجابة لدعائنا في الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[1] ليبيّن لنا تعالى طريق المغضوب عليهم، وبماذا أمرهم وكيف أنّهم خالفوا أوامره واتّبعوا أهواءهم؟ فأحاطت بهم سيّئاتهم، فصاروا من اليهود المغضوب عليهم.

وفي سياق الآيات عدّد الله تعالى النّعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، كتفضيلهم على العالمين، وإنجائهم من الغرق، وإنزال المنّ والسّلوى عليهم. ثمّ ذكر تعالى ما يحدث للعبد من المسلمين ومن الأمم السّابقة إثر كلّ نعمة من مخالفة فعقوبة فتوبة.

المعنى العام

يذكّر تعالى بني إسرائيل عامّة واليهود خاصّة فيقول ﷻ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ فلا يتصوّر منكم شرك معي ولا ميل إلى غيري، فلا تعبدوا إلا إيّاي، فهذا الميثاق الذي أخذ من بني إسرائيل هو عينه الّذي يؤخذ علينا وعلى جميع الأمم السّابقة. فعقيدة جميع الأنبياء - من لدن آدم - إلى سيّدنا محمد ﷺ هي التّوحيد، ودينهم الإسلام، وأمروا جميعًا بعبادة الله وحده، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حقّ الله تبارك وتعالى أن يُعبد وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2]، ثمّ يأتي بعده حقّ المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك هو حقُّ الوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ ولذلك يقرن تعالى بين حقّه وحقّ الوالدين في كلّ موضع يأمر فيه النّاس بعبادته. إلّا أنّ طاعة الله مطلقة، كما أنّ طاعة رسول الله ﷺ مطلقة، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3]؛ أمّا طاعة الوالدين فمقيّدة بما لا يخالف أمر الله، كما قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[4]، وقال ﷻ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[5]. لأنّ الآباء هم الذين يكافحون في الحياة ليرعوا أولادهم. فإذا رعى المجتمع الإسلامي اليتيم عَمَّت الطُّمأنينة عن أفراده، فلا أبٌ يخشى على أولاده بعد موته، ولا يتيمٌ يخشى على ماله من الضّياع أو على نفسه من الإهمال إذا خلّفه أبوه فقيرًا، ولا غنيّ يخشى على ماله من زواله بالاختلاس أو الحسد لأنّ التّكافل أورث بين أفراد المجتمع، المحبّة والألفة، والمساكين الذين لا يملكون كفايتهم من عاهة أو شغلهم أمرهن مطعم وملبس ومسكن بسبب خدمات متواضعة لا تكفي لسد كامل حاجاتهم، فتُعدّ مساعدتهم واجبًا شرعيًا لحاجتهم الماسة.

(١) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦- ٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

وفي قوله ﷻ ﴿وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ أي أحسنوا بذي القربى نسبًا ودينًا، وأحسنوا باليتامى والمساكين بالمواساة والملاطفة. ﴿وَالْيَتَامَى﴾ هم الصغار دون البلوغ الذين لا كاسب لهم من الآباء، ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي كلّموهم بكلام طيّب مع لين الجانب، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والحلْم والعفو والصّفح.

الإحسان هو فعل الأتمّ والأفضل، وهو ما لا لغو فيه ولا تأثيم، بل هو ما فيه نصحٌ وإرشاد ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بإتقان شروطها وكمال آدابها، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأدّوا الزّكاة لمستحقّيها، ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنكُمْ﴾ ممّن أسلم منكم ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الحقّ بعد ظهوره.

ذكر الحقّ تعالى في هذا العهد أربعة أعمال: عملًا خاصًّا بالقلب، وهو **التّوحيد**، وعملًا خاصًّا بالبدن، وهو **الصّلاة**، وعملًا خاصًّا بالمال، وهو **الزّكاة**، وعملًا عامًّا في كل شيء وهو **الإحسان**، ورتّبها باعتبار الأهمّ فالأهمّ، فقدّم الوالدين لتأكيد حقّهما الأعظم، ثمّ القرابة، لأنّ فيهم أجر الإحسان وصلة الرّحم، ثمّ اليتامى لقلّة حيلتهم، ثمّ المساكين لضعفهم والله تعالى أعلم.

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**الصَّلاة عَلَى مِيقَاتِهَا**»، قُلْتُ: ثمّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ**»، قُلْتُ: ثمّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»"[1]؛ ولهذا جاء في الحديث الصّحيح، أنَّ رجلًا قال: "يا رسول الله من أحقّ النّاس بحسن الصّحبة؟ قال: «**أُمُّك ثمّ أُمُّك ثمّ أُمُّك، ثمّ أبوك، ثمّ أدناك أدناك**»"[2].

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآية:

بعث تعالى جميع الأنبياء بدين الإسلام وبعقيدة التّوحيد، وبأنّه لا إله إلّا الله. وهذا هو دين سيّدنا إبراهيم وسيّدنا موسى وسيّدنا عيسى، وسائر الأنبياء ﷺ. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

---

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن ابن مسعود، حديث رقم: ٢٧٨٢، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٢٥٤٨، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: برّ الوالدين وأنّهما أحقّ به.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

اختر إحدى هذه العبادات ونفّذها اليوم حتّى تكون عاملًا بكتاب الله، وانظر كيف تجد قلبك بعد ذلك، ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وبالوالدين إِحْسَانًا وذي القربى وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ﴾.

الأمور التي أمر الله بها بني إسرائيل في الآية (٨٣) وأخذ منهم العهد عليها وأمر بها تعالى جميع الخلق، وهي تكوّن النّظام الدّيني والاجتماعي والأخلاقي وقد رتّبها ترتيبًا دقيقًا متناسقًا، فقدّم حقّ الله تعالى في إفراده بالعبودية لأنّه هو المنعم والمتفضل على جميع خلقه، ثمّ ذكر الوالدين لأنّهما سبب وجود الإنسان، وهم اللذان راعاياه صغيرًا حتى كبر واشتدّ، ثم القرابة لأنّ فيهم صلة الرّحم، ثم اليتامى لقصورهم ثم المساكين لضعفهم، ثمّ أمر تعالى بالقول الحسن لإبعاد الشّيطان عن بني البشر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[1]، ثم ختم جلّ جلاله تلك الأوامر بإقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة، لأنّ الأولى تقوي الصّلة بينه وبين الخلق والثّانية تطهر النُّفوس وتدفع الأموال وتمنع الكبر المسبب للشقاق وتخرج الدُّنيا من قلبه، وبهذا يحدث التّرابط والتّكافل بين أفراد المجتمع وهو ما يقصد إليه الشّارع الحكيم.

وإليكم التفصيل:

١. **عبادة الله وحده لا شريك له:** فهي برهان الاعتقاد الصّحيح ودليل الإيمان من عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[3].

قال ابن كثير: وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حقّ الله تبارك وتعالى أن يعبده وحده لا شريك له. والمراد بقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ كما قال الزّمخشري الطّلب، فهو خبر بمعنى الطّلب، وهو آكد.

٢. **الإحسان إلى الوالدين:** هذا يأتي بعد حقّ الله تعالى، فإنّه تعالى أكّد حقوق المخلوقين، وأولاهم بذلك حقّ الوالدين، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقّه بالتّوحيد وحقّ الوالدين؛ لأنّ النّشأة الأولى من عند الله تعالى، والنّشء الثّاني -وهو التّربية- من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشّكر لهما بشكره، فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[4]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[5].

والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتّواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدّعاء بالمغفرة بعد مماتهما وصلة أهل ودّهما. وفي الصّحيحين عن ابن مسعود: «سَأَلْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ قالَ: الصَّلاةُ عَلى ميقاتِها. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ قالَ: ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ قالَ: الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ»[6] وجاء في الحديث الصّحيح: وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: «قيلَ: يا رَسولَ اللهِ ﷺ! مَنْ أَبَرُّ؟ قالَ: "أُمَّكَ". قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: "أُمَّكَ". قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: "أُمَّكَ". قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: "أُمَّكَ". قالَ: ثُمَّ من؟ [ثمَّ عاد الرّابعةَ فـ] قال: "أباك"»[7]

والحكمة في برّ الوالدين واضحة: وهي المعاملة بالمثل ومقابلة المعروف بمثله، والوفاء للمحسن، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[8]

(١) سورة الاسراء ، الآية: ٥٣. (٢) سورة الانبياء ، الآية: ٢٥. (٣) سورة النحل ، الآية: ٣٦. (٤) سورة لقمان ، الآية: ١٤.
(٥) سورة الاسراء ، الآية: ٢٣.
(٦) رواه البخاري في صحيحة، عن ابن مسعود، حديث رقم: ٢٧٨٢، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير.
(٧)رواه البخاري في الأدب المفرد، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٥/٥، باب: برّ الأب. حديث صحيح.
(٨) سورة الرحمن ، الآية: ٦٠.

فهما بذلا للولد وهو صغير كلّ عناية وعطف بتربيته واهتمّا بشؤونه، فيجب على الولد مكافأتهما وبرهما في حياتهما وبعد موتهما.

٣. **الإحسان إلى ذي القربى:** أي القرابة، عطف ذي القربى على الوالدين، وهو يدل على أنّ الله تعالى أمر بالإحسان إلى القرابات بصلة الأرحام، لأنّ الإحسان إليهم ممّا يقوّي الرّوابط بينهم، فما الأمّة إلّا مجموعة الأسر، فصلاحها بصلاحها، وفسادها بفسادها، ولا يعرف فضل الأسرة إلّا في وقت الشّدّة والكوارث، فعندها يظهر التعاطف والتعاون وترميم الأضرار، وإزالة العثرات.

٤. **الإحسان إلى اليتامى:** وهم صغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، والإحسان إلى اليتيم: بحسن تربيته وحفظ حقوقه من الضّياع، وقد ملأ الكتاب والسّنّة بالوصيّة به والرّأفة به والحضّ على كفالته وحفظ ماله، من ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: **«كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنّة»** [١] وأشار مالك بالسّبّابة والوسطى.

٥. **الإحسان إلى المساكين:** وهم الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم، وقد أمر الله بالإحسان إلى المساكين وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم، وذلك يكون بالصدقة، ومواساتهم حين البأساء والضراء، عن أبي هريرة أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»** [٢]. وأحسبه قال -وكالقائم لا يفتر، وكالصّائم لا يفطر. قال ابن المنذر: وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله تعالى.

٦. **الكلام الطّيّب،** ولين الجانب، وإظهار الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ونحو ذلك ممّا هو في الدّين والدُّنيا كالحلم والصّفح والعفو والبشاشة.

وذلك لأنّ إحسان القول له تأثير فعّال في النُّفوس، وبه يتم التّكافل الأدبيّ أو الأخلاقيّ بين النّاس، فإنّه سبحانه وتعالى عبّر بقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ولم يقل لإخوانكم، ليدلّ على أنّ الأمر بالإحسان عام لجميع النّاس.

عن أبي ذرّ الغفاري عن النّبيّ أنّه قال: **«لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، وإن لم تجد، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»** [٣]، وبهذه الفضيلة وهي القول الحسن بعد الأمر بالإحسان الفعلي إلى النّاس، يجمع بين طرفي الإحسان الفعليّ والقوليّ.

٧. **إقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة:** الصّلاة عماد الدّين، وطريق التقوى، وهمزة الصّلة بالله، وسبيل التّحلّي بالفضائل والبعد عن الرّذائل، ولكن بشرط الإخلاص والخشوع التّام لعظمة الله وسلطانه -وأمّا إيتاء الزّكاة فضروري لإصلاح شؤون المجتمع، لكنّ كلًا من الصّلاة والزّكاة لم يثبت فيهما عن أهل الكتاب نقل صحيح يدلّ على كيفيتهما ونوعهما، روى عن ابن عبّاس أنّه قال: "يَعْنِي بِالزَّكَاةِ الَّتِي أمروا بها طاعَةَ اللَّهِ وَالإِخْلاصَ" [٤]

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٢٩٨٣، كتاب: الزهد والرقائق، باب: الإحسن إلى الأرملة والمسكين واليتيم.
(٢) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٥٣٥٣، كتاب: النفقات، باب: فضل النفقة على الأهل.
(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي ذر الغفاري، حديث رقم: ٢٦٢٦، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب طلاقة الوجه عند اللّقاء.
(٤) ذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، سورة البقرة، الآية: ٤٤. ص:١٥١/١.

- **من الأخلاق المحمّديّة** الّتي تعلّمناها من القرآن الكريم على سبيل المثال لا الحصر ضبط ألفاظنا: ﴿وقولوا للنّاس حُسنًا﴾. أمر الله تعالى عباده أن يتخيّروا من الألفاظ أحسنها، ومن الكلمات أجملها عند حديث بعضهم لبعض؛ حتّى تشيع الألفة والمودّة وتندفع أسباب الهجر والقطيعة والعداوة، فقال الله تعالى محذّرًا: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾[1]. إنّ هذه الآية تأمرنا أن نحسن اختيار ألفاظنا ونراقبها، وأن لا نطلق العنان لألسنتنا تتكلّم وإن كانت نوايانا سليمة. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم. فدواء هذا أن لا يطيعوا الشّيطان في الوساوس التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا الجانب فيما بينهم لتنقمع مزاعمه، فإنّه عدوّهم الحقيقي الذي ينبغي محاربته، فهو يدعو النّاس ليكونوا من أصحاب السّعير.

ومن لطفه سبحانه بعباده أن أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسّعادة في الدّنيا والآخرة، ومنه **حُسن الكلام** مع الزّوجة، أو مع الزّوج أو مع العائلة، أو مع الخادمة، أو مع الأصدقاء، ومع السّائل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[2]، فهذه قاعدة عظيمة في الأخلاق المحمّديّة: ﴿وقولوا للنّاس حُسنًا﴾.

فالكلام الحسن اللطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، والقول الحسن داعٍ لكلّ خُلُق جميل وعمل صالح، فإنّ من مَلَكَ لسانه ملك جميع أمره. ولهذا ينبغي على الإنسان أن يسأل نفسه قبل أن يتكلّم: هل هناك ما يستدعي هذا الكلام؟ وإلّا فليصمت كما أمر رسول الله ﷺ «﴿وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ﴾»[3]؛ ولذا قيل: "خير الألسن المخزون، وخير الكلام الموزون، فحدّث إن حدّثت فهو أفضل من الصّمت، وزيّن حديثك بالوقار وحسن السّمت".

إنّ الطّيش في الكلام يُترجم عن خفّة الأحلام، وما دخل الرّفق في شيء إلّا زانه، وما زان المتكلّم إلا الرّزانة كما قال بعض الحكماء: إنّ الذين تقودهم ألسنتهم ولا يقودونها، إنّما تقودهم إلى مصارعهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا عَلَى الْأَرْضِ شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلَى طُولِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ»[4]، ولذلك فإنّ اللسان السّائب حبل مُرخى في يد الشّيطان، يقوده حيث يشاء.

كما أنّ البعد عن اللغو من أركان الفلاح؛ ولذا ذكره تعالى بين فريضتين من أجَلّ فرائض الإسلام، الصّلاة والزكاة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللغْوِ مُعْرِضُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾[5] ففَصَل تعالى بينهما بالإعراض عن اللغو لأهمّيّة ذلك ومنزلته وقدره، ولعظم عبادة حفظ اللسان فينبغي على العباد أن يراعوا هذه القضيّة.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الضحى، الآية: ٩.
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، حديث رقم: ٦٠١٨.
(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنّفه، عن عيسى بن عقبة، كتاب: الأدب، باب: في كفّ اللسان، حديث رقم: ٢٦٤٩٩.
(٥) سورة المؤمنون، الآيات:١-٤.

فالكلام الطيّب الحسن الليّن يجمُل مع الجميع، يجمُل مع الأصدقاء، مع الزّوجة، مع الخادم والعامل، ومع الأعداء جميعًا، وله ثماره الحلوة، وظلاله الوارفة، أمّا مع الأحباب فإنّه تُستدام به المحبّة، ويُدفع به كيد الشّيطان مع الأعداء، ولهذا قيل: "مَن لانَت كِلمَتُهُ وَجَبت محبَّتُهُ". وهذا شيء مشاهد، فالنّاس يحبّون، ويميلون إلى من يتلطّف بهم بالقول، وينفرون غاية النّفور ممّن يخاشنهم في الكلام، ويزجرهم في المخاطبة. وأمّا مع الأعداء، فإنّه يطفئ نار العداوة، ويكسر حدّتها، أو على الأقل يحدّ من تطوّرها ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾[1] فإذا تكلّم العبد بكلمة قد تُنتقد وتُعاب، فإنّ الشّيطان قد يتّخذ ذلك مدخلًا لإثارة الضّغائن، وإثارة النّفوس، فيحصل من الشّرّ والعداوات ما لا يقدر قدره. وقد حثّ رسول الله ﷺ على لين الجانب، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرْفَةً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا»، فَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «لِمَنْ أَلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ لله قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[2] وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي، أَنبِئْنِي بِعَمَلٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: «أَطِبِ الكَلَامَ، وَأَفْشِ السَّلَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَصَلِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ.»[3]

فالله ﷻ ذكر في الميثاق الذي أُخذ على بني إسرائيل،﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[4] وجوب عبادته وحده لا شريك له، وهذا هو الأصل الكبير الذي عليه مدار بعث الرّسل عليهم السلام. ثمّ ذكر لهم الحقّ الآخر وهو حقّ الوالدين، ثمّ ذكر القرابات، ثمّ ذكر الضعفاء من الأيتام والمساكين، ثمّ أمر بالإحسان إلى سائر النّاس ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وهذا أمر من الله ﷻ والأصل أنّ الأمر للوجوب، فقضيّة الإحسان والملاطفة بالقول ولين الجانب ليست قضية اختياريّة بل هي واجب قد أمر تعالى به، فمن تأمّل الآية الكريمة يرى أنّ الله تعالى بعد أن بيّن الحقوق العمليّة من برّ، وإطعام، أعقب ذلك بالقول الحسن؛ ليجمع العبد بين الإحسانين: الإحسان العمليّ، والإحسان القوليّ؛ ذلك أنّ الإنسان مهما بذل ومهما أوتي من الإمكانات والأموال فإنّه لا يستطيع أن يستوعب الجميع بماله وخدماته، لأنّ الوقت يضيق عن ذلك، وطاقة الإنسان تعجز عنه، ولكن هناك أمر لا يعجز عنه العبد لجميع الخلق، وهو الإحسان بالقول.

فعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ لَا تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلْيَسَعْهُمْ منكم بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»[5].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٢) رواه أحمد في مسنده، عن عبد الله بن عمرو، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، حديث رقم: ٦٦١٥، الحديث حسن لغيره.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن أبي هريرة، كتاب: ذكر طوائف من جماهير النساك والعباد، باب: عبد الرحمن بن مهدي ومنهم الإمام الرضي.

(٤) سورة البقرة: ٨٣.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، عن أبي هريرة، كتاب: العلم، باب: فصل في توقير العالم، حديث رقم: ٤٢٨، الحديث صحيح.

قصّة من الحياة المعاصرة:

يروي لنا رجل قصّة صبيّ قابله ذات يوم في المسجد، وقد ترك فيه أثرًا جميلًا لمدى حياته، قائلًا: "بعد انتهائنا مِن الصّلاة، سمعت صوتًا لطيفًا من جانبي، فالتفتُّ إليه، فإذا هو غلام تُظهِرُ ملامحُهُ نضجًا في التّصرّف وهدوءًا داخليًّا. كان يصلّي بقربي، فبادر في إلقاء التّحيّة والابتسامة مرسومة على وجهه السّمح، ثمّ قال لي: "دعوت لك في سُجودي". أدهشتني كلماتُهُ الصّادقةُ رغم قلّتها. وبعد لحظات من الصّمت، وأنا أتأمّل كرم أخلاق هذا الغُلام، سألته: "يا بنيّ، من أين تعلّمت هذا التّصرّف اللطيف؟" فقال لي بكلّ ثقة دون أيّ تردّد: "لقد علّمتني أمّي أنّ رسول الله ﷺ أمرنا أن نطبّق قول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1] ! فاحتضنته باكيًا ومتأثّرًا، فكيف لطفلٍ في سنّه أن يصلّي في المسجد بدل أن يلعب، ويعمل بوصيّة والدته بصدق وأمانة، ويبادر بإلقاء السّلام على من بجانبه، مع ابتسامةٍ تُظهِر جمالَ روحِه ودعاءَه النّابع من قلبه، رغم عدم معرفته به...! أمر عجيب ونادر...

بقي هذا الشّعور الجميل في قلبي لوقت طويل. ومنذ تلك اللحظة، قرّرت الاقتداء بهذا الطّفل المميَّز، فبدل أن أترك المسجد مباشرة بعد كلّ صلاة، صرت أحرص على إلقاء التّحيّة على من أعرف ومن لا أعرف كما علّمنا رسول الله ﷺ، مع ابتسامة صادقة لمن بجانبي، وأخبره بأنّي قد دعوت له في صلاتي، حتّى أصبح لديّ اليوم دفتر كامل، يحتوي على ردّات فعل وكلمات كان لها تأثير عميق في داخلي، سمعتها من أناس صلّوا بقربي في المسجد.

أذكر منها قصّة رجل جاء من "غانا" كان يصلّي للمرّة الأولى في مسجد الحيّ؛ دمعت عيناه حين ألقيت عليه التّحيّة، وأخبرته بأنّي قد دعوت له، فقد كان يشعر بضيق في صدره ووحدة ووحشة في بلد غريب عنه، فوجد أنسًا ومحبّة...

فسبحان الله **الودود** الّذي يؤلّف بين قلوب النّاس بكلمة، ويجبر قلبًا مكسورًا بابتسامة، وعجبتُ كيف أنّ صغائر الأمور تبني عظائم الأجور، وكيف أنّ صلاح الأمّ يصنع أجيالًا صالحة من القادة الأتقياء بأخلاق يُقْتَدى بها وسلوك يُفتخَر به، وكيف أنّ السّير على نهج رسول الله ﷺ من أقصر الطّرق وأجملها لتقريب نفوس بعيدة، وإحياء أرواح عطشى لما هو خير لها".

في السّيرة والشّمائل

إنّ سيّدنا محمّدًا ﷺ أفصح النّاس لسانًا، وأعذبهم كلامًا، وأحلاهم منطقًا، ففصاحة لسانه غاية لا يُدرَك مداها، ومنزلة لا يُدانى منتهاها، وهي لا تحتاج إلى إقامة برهان أو استدعاء شاهد، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2]. ومن خصائصه ﷺ التي خصّه الله بها أن أعطاه جوامع الكلِم. وكان ﷺ كثيرًا ما يبتسم أثناء حديثه وكلامه، فعن أبي الدّرداء -رضي الله عنه- قال: "مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ حَدِيثًا إِلَّا تَبَسَّمَ فِي حَدِيثِهِ"[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٢) سورة النّجم، الآيتان: ٣- ٤.
(٣) رواه الطّبرانيّ في مكارم الأخلاق، عن أبي الدرداء، كتاب وباب: فضل تبسّم الرجل في وجه أخيه المسلم، حديث رقم: ٢١.

الأعرابيُّ الشَّديدُ:

عاد النّبيّ ﷺ ذات يومٍ إلى بيته متعبًا بعد يومٍ شاقٍّ من الدَّعوة إلى الله تعالى، وحين كان يسير ﷺ متّجهًا نحو حُجرته، أدْركه أعرابيٌّ، فجذب طرف ردائِه من خلفه جذبةً شديدةً، فاجأت النّبيّ ﷺ.

وكان ﷺ قد ارْتدى رداءً نجرانيًّا غليظ الحاشية، وبسبب هذه الجذْبة الشَّديدة المفاجِئة غاصت حاشية الرِّداء في عنُقه الأبيض الوضَّاء، وأثَّرت فيه، وبدلًا من أن يعتذِر الأعرابي ويطلبُ العفو من النّبيّ ﷺ رفع صوته بالنِّداء، قائلًا: (يا مُحمَّد... يا مُحمَّد) بطريقة مستفزّة ومسيئة للأدب، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ...﴾[1].

ثمَّ ما لبث أن طلب العطاء بطريقة فوقيّة استعلائيّة، فقال: "أَعْطِنِي مِنْ مالِ اللهِ الَّذي عِنْدَكَ"، انظروا إلى هذا الموقف المستفِـزّ!

كيف كانت ردَّةُ فعلِ النّبيّ ﷺ؟

كانت ردَّةُ فعلِهِ عجيبةً ﷺ، إذ إنّه لم يغضب بل تعامل معه بقانون العظمة الأخلاقيَّة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] فقد التفت إليه ولم يُعرض عنه أو يعبس بوجهه... بل تبسّم له ليخفّف من غِلظته ويُليّن قلبه وأعطاه ما سأل، يقول أنس رضي الله عنه: "فالتفت إليه فضحك ثمّ أمر له بعطاء"[3].

إنَّ هذا الدَّرس النَّبويَّ العظيم يُعلّمنا كيف نطفئ نيران الغضَب في قلوبنا، ونسكب السَّكينة في نفوسنا.

فما الَّذي دفع هذا الأعرابيَّ لئن يطلب العطاء بهذا الشكل الفظّ. ألَا يَخاف عقوبةً؟! فرسول الله ﷺ هو أيضًا خليفة المسلمين. وهل كان سيجرؤ أن يتصرّف هكذا مع ملك أو حاكم؟ أم كان سيحسب لكلامه ألف حساب؟

إنّ هذا الأعرابي كان يعيش في حِماية أخلاق سيّدنا محمَّد ﷺ، ممّا أعطاه الأمان والثِّقة ليُعَبّر عمَّا في نفسِه، ويطالب بما يظنُّ أنَّه حقُّه. وكان يعلم أنَّه ﷺ يفعل ما يقول، وأنَّه لن يقابل الإساءة بالإساءة.

فعَنْ أَبي الأَحْوَصِ، عَنْ أَبيهِ قالَ: "قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، الرَّجُلُ أَمرُّ بِهِ فَلا يَقْريني وَلا يُضَيِّفُني، فَيَمُرُّ بي أَفَأُجْزيهِ؟ قالَ: ﴿لا، أَقْرِهِ﴾[4] أي أكرمه ولا تعامل إساءته بمثلها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ثَلاثٌ مَن كنَّ فيهِ حَاسَبَهُ اللهُ حِسَابًا يَسِيرًا وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، أَنْ تُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ﴾[5].

طهّر قلبك من التّشفّي والانتقام ومن ردّ الإساءة، وتعامل مع الله تعالى لا مع النّاس، وانظر إلى من ظلمك ومن أساء إليك أنّه مرسل لك من الله تعالى، ليعلّمك الحلم والعفو ونشر السَّلام والكرم مع من يستحقّ ومن لا يستحقّ.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

(٣) الحديث رواه أحمد في مسنده بلفظ مقتضب، عن أنس بن مالك، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: أنس بن مالك، حديث رقم: ١٢٥٤٨، الحديث إسناده صحيح.

(٤) رواه التّرمذيّ في سننه، عن أبي الأحوص عن أبيه، كتاب: أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في الإحسان والعفو، حديث رقم: ٢٠٠٦.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك، عن أبي هريرة، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة إذا السماء انشقّت، حديث رقم: ٣٩١٢، الحديث صحيح.

في السّلوك

الإشارة: كلّ عهد أُخذ على بني إسرائيل يؤخذ مثله على الأمّة المحمّديّة. وهذه حكمةُ ذكر قصصهم لنا وسرد مساوئهم علينا، لنتحرّز من الوقوع فيما وقعوا فيه، فنهلك كما هلكوا. وكلّ عهد أُخذ على العموم باعتبار الظّاهر يؤخذ مثله على الخصوص باعتبار الباطن، فقد أخذ الحقّ سبحانه العهد على المتوجّهين إليه ألّا تتوجّه همّتهم إلا إليه، ولا يعتمدون بقلوبهم إلا عليه، وأن يتخلّقوا بالإحسان مع الأقارب والأجانب وكافّة الإخوان، وخصوصًا الوالدين من قِبل البشريّة أو الرّوحانيّة، وهم أهل التّربية النّبويّة، فحقوق أب الرّوحانيّة (الإشارة والتّربيّة) تساوي أو تُقدّم على أب البشريّة، لأنَّ أب البشريّة كان سببًا في خروجه إلى دار الفناء والهوان، وأب الروحانيّة كان سببًا في دخوله إلى رَوْحٍ وريْحان.

وأخذ العهد على المتوجّهين أن يكلّموا النّاس بالملاطفة والإحسان، ويرشدوهم إلى الكريم المنّان، ويقيموا الصّلاة بالجوارح والقلوب، ويؤدّوا زكاة نفوسهم بتطهيرها من العيوب، فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون، وعن دائرة الولاية خارجون.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

اللَّهُمَّ يا من قلت و قولك الحق﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إنا نسألك رضاك ثم رضاء الوالدين اللَّهُمَّ اغفر لوالدينا وارحم والدينا وتجاوز عن والدينا الأحياء منهم والأموات.

اللَّهُمَّ اجعلنا من أحبّ النّاس إلى والدينا ومن أقرب الأبناء لهما، وأكرمنا بحسن السُّؤال لهما، والحرص عليهما، اللَّهُمَّ لا تشغلنا عنهم لا بمال ولا بزوجات ولا بولد اللَّهُمَّ ارزقنا برّهم في حياتهم وبعد وفاتهم.